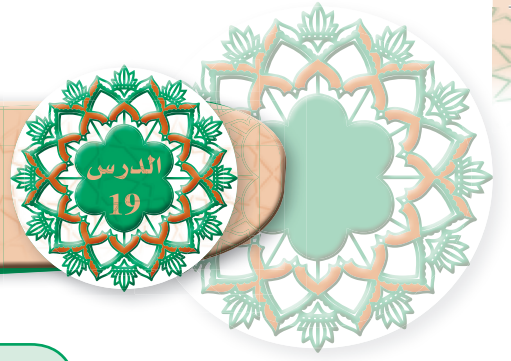


النفس والإنسان



أهداف الدرس

1. أن أتعرف حقيقة النفس ومراتبها وأنواعها؛
2. أن أدرك حقيقة الإنسان ووظيفته في الوجود؛
3. أن أسمو بنفسي وأرقي بإنسانيتي.

تمهيد

الإنسان كائن ذو فضول علمي، وحس معرفي، يقف قارئاً وفاهماً ومميزاً، محاولاً فهم طبيعة نفسه ووجوده، محدداً علاقة تفاعله مع بني جنسه وذويه، متسائلاً عن ذاته وشخصيته، لافتاً النظر إلى تحديد مركزيته في الكون ووظيفته في القراءة والفهم والتبصر، وحسن التدبير. فما حقيقة النفس؟ وما أنواعها ومراتبها؟ وما الإنسان؟ وما الغاية ومن وجوده؟

نص الانطلاق

1. يقول ابن سينا: «إذا قلنا إن النفس كمال فهو أولى من أن نقول: قوة، وذلك لأن الأمور الصادرة عن النفس، منها ما هي من باب الحركة، ومنها ما هي من باب الإحساس والإدراك، والإدراك بالحري أن يكون لها، لا بما لها قوة هي مبدأ فعل، بل مبدأ قبول. والتحرك بالحري أن يكون لها، لا بما لها من قوة هي مبدأ فعل، وليس أن ينسب إليها أحد الأمرين بأنها قوة عليّة أولى من الآخر». [النفس من كتاب الشفاء، ص 17-18]

2. يقول أبو حامد الغزالي: «... حقيقة الإنسان ليس عبارة عن الجسم فحسب، فإنه إنما يكون إنساناً، إذا كان جوهرًا، وأن يكون له امتداد في أبعاد تفرض طولاً وعرضاً وعمقاً، وأن يكون مع ذلك ذا نفس، وأن تكون نفسه نفساً يغتذي بها، ويحس ويتحرك بالإرادة. ومع ذاك يكون بحيث يصلح لأن يتفهم المعقولات، ويتعلم الصناعات ويعملها، إن لم يكن عائق من خارج، لا من جهة الإنسانية، فإذا التأم جميع هذا حصل من جملتها ذات واحدة هي ذات الانسان». [معارج القدس، ص 23-24]

الفهم

الشرح:

- الحرّي: الجدير والخليق والأولى .
- الجوهر: هو القائم بنفسه، الحامل للأعراض .
- المعقولات: هي المعاني والمفاهيم الكلية التي تدرك بالعقل .

استخلاص المضامين:

- أستخلص من النصين حقيقة النفس وأنواعها، وحقيقة الإنسان ووظيفته في الوجود .

التحليل

نتناول هذا الدرس من خلال المسألتين الآتيتين:

المسألة الأولى: حقيقة النفس وأنواعها ومراتبها

وجود النفس أظهر من أن يحتاج إلى دليل في ثبوتها، يقول الإمام الغزالي: «النفس أظهر من أن تحتاج إلى دليل في ثبوتها، فإن جميع خطابات الشرع تتوجه لا على معدوم، بل على موجود حيّ يفهم الخطاب» [معارج القدس، ص19]، ويأتي الإمام الغزالي -رحمه الله- بعدة أمثلة على ثبوت النفس وأنواعها فيقول: «مثال ذلك أنا نرى الأجسام النباتية تغذي وتنمو وتولد المثل، وتتحرك حركات مختلفة من التشعيب والتعريق، فهذه المعاني إن كانت للجسمية فينبغي أن تكون جميع الأجسام كذلك، وإن كانت لغير الجسمية بل لمعنى زائد فذلك المعنى يسمى نفساً نباتية، ثم الحيوان فيه ما في النبات، ويحس ويتحرك بالإرادة، ويهتدي إلى مصالح نفسه، وله طلب لما ينفع وهرب عما يضر، فنعلم قطعاً أن فيه معنى زائداً على الأجسام النباتية، ثم نجد الإنسان فيه جميع ما في النبات والحيوان من المعاني، ويتميز بإدراك الأشياء الخارجة عن الحس، مثل: أن الكل أعظم من الجزء، فيدرك الجزئيات بالحواس الخمس، ويدرك الكليات بالمشاعر العقلية، ويشارك الحيوان في الحواس، ويفارقه في المشاعر العقلية...، فثبت بهذا وجود النفس، وثبت على الجملة أنه جوهر، وثبت أنه منزّه عن المادة والصور الجسمانية». [معارج القدس ص19-20 بتصرف].

- حقيقة النفس وأسمائها: يقول الكندي - في حقيقة النفس -: «تمامية (كمال) جرم طبيعي ذي آلة قابل للحياة، ويقال: هي استكمال أول لجسم طبيعي ذي حياة بالقوة؛ ويقال: هي جوهر

عقل متحرك من ذاته بعدد مؤلف». [رسائل الكندي - رسالة في حدود الأشياء ورسومها-، ص165] وهو ما عبر عنه ابن سينا بقوله: «إذا قلنا إن النفس كمال فهو أولى من أن نقول: «قوة»، ويعلل ابن سينا اختياره في حقيقة النفس بأنها «كمال» فيقول: «وذلك لأن الأمور الصادرة عن النفس، منها ما هي من باب الحركة، ومنها ما هي من باب الإحساس والإدراك، والإدراك بالحري أن يكون لها، لا بما لها قوة هي مبدأ فعل، بل مبدأ قبول». يقول الشريف الجرجاني: «النفس: هي الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية، وسماها الحكيم: الروح الحيوانية». [التعريفات، ص239]

وتسمى النفس بأسماء مختلفة باعتبارات مختلفة، يقول ابن سينا: «إن النفس يصح أن يقال لها بالقياس إلى ما يصدر عنها من الأفعال قوة (مبدأ الفعل). وكذلك يجوز أن يقال لها بالقياس إلى ما يقابلها من الصور المحسوسة والمعقولة على معنى آخر قوة». ويصح أن يقال أيضا لها بالقياس إلى المادة التي تحلها فيجتمع منهما جوهر نباتي أو حيواني صورة. ويصح أن يقال لها أيضا بالقياس إلى استكمال الجنس بها نوعا محصلا في الأنواع العالية أو الساقلة كمال...». [النفس من كتاب الشفاء، ص15]

- أنواع النفس: يقول الإمام الغزالي: «كل مبدأ يصدر منه فعل فإما أن يكون له شعور بفعله أو لم يكن، فإن لم يكن له شعور، فإما أن يكون فعله متحدا على نسق واحد، وإما أن يكون مختلفا، وإن كان له شعور، فإما أن يكون تعقل أو لم يكن، فإن كان له تعقل، فإما أن يكون فعله متحدا على نسق واحد، وإما أن يكون مختلفا، فهذه خمسة أقسام: فما كان فعله متحدا وليس له شعور فذلك المبدأ يسمى مبدأ طبيعيا كما في الأجسام الثقيلة من الهبوط، وفي الخفيفة من الصعود، وإن كان فعله مختلفا وليس له شعور فهو النفس النباتي، فإن النبات يتحرك حركات مختلفة، وإن كان له شعور وليس له تعقل فهو النفس الحيواني، وإن كان له تعقل ومع التعقل اختيار في الفعل والترك فهو النفس الإنساني، وإن كان له تعقل، وفعله على نهج واحد غير مختلف فهو النفس الفلكي». [معارج القدس، ص19-20] وعليه فأنواع النفس هي: النفس النباتي: هو كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يتولد ويزيد ويغذي. النفس الحيواني: هو كمال أول لجسم طبيعي، آلي من جهة ما يدرك الجزئيات ويتحرك بالإرادة. النفس الإنساني: هو كمال أول لجسم طبيعي، آلي من جهة ما يدرك الأمور الكليات، ويفعل الأفعال الفكرية. النفس الناطقة: هي الجوهر المجرد عن المادة في ذاتها مقارنة لها في أفعالها. النفس القدسية؛ هي: التي لها ملكة استحضار جميع ما يمكن للنوع أو قريبا من ذلك، على وجه يقيني، وهذا نهاية الحدس. النفس الرحماني: عبارة عن الوجود

العام المنبسط على الأعيان عيناً، وعن الهيولي الحاملة لصور الموجودات، والأول مرتب على الثاني. [التعريفات، ص 239-240 بتصرف]

- **مراتب النفس الإنسانية:** يقول الغزالي: «وهو (النفس) من عالم الملكوت، ومن عالم الأمر...، نعم تختلف أسماؤها باختلاف أحوالها العارضة عليها، فإن اتجهت إلى صواب الصواب، ونزلت عليها السكينات الإلهية، وتواترت عليها نفحات فيض الجود الإلهي فتطمئن إلى ذكر الله عز وجل وتسكن إلى المعارف الإلهية وتطير إلى أعلى أفق الملكية، فيقال: نفس مطمئنة قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُكْذِِبَةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر 30-31]. وإن كانت مع قواها وجنودها في حراب و قتال وشجار ونزاع، وكانت الحرب بينهما سجالات، فتارة لها اليد عليها، وتارة للقوى عليها اليد فلا تكون حالها مستقيمة، فتارة تنزع إلى جانب العقول فتتلقى المعقولات، وتثبت على الطاعات، وتارة تستولي عليها القوى فتتهبط إلى حضيض منازل البهائم، فهذه النفس نفس لوامة، وهذه النفس هي حالة أكثر الخلق فإن من ارتفع إلى أفق الملائكة حتى تحلى بالعلوم والفضائل النفسية والأعمال الحسنة فهو ملك جسماني لا ارتفاعه عن الإنسانية وعدم مشاركته للبشر إلا بالصورة التخطيطية ولهذا قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ أَبْشَرًا إِنَّ قُلَمَاءَ إِلَهًا مَلَكًا كَرِيمًا﴾ [يوسف 31]، [معارج القدس، ص 15-16 بتصرف].

المسألة الثانية: حقيقة الإنسان ومكونات وجوده وعلاقاته

إن الإنسان كائن مركب؛ يقول الغزالي: «... حقيقة الإنسان ليس عبارة عن الجسم فحسب، فإنه إنما يكون إنساناً إذا كان جوهرًا، وأن يكون له امتداد في أبعاد تفرض طولاً وعرضاً وعمقاً، وأن يكون مع ذلك ذا نفس، وأن تكون نفسه نفساً يغتذي بها، ويحس ويتحرك بالإرادة. ومع ذلك يكون بحيث يصلح لأن يتفهم المعقولات، ويتعلم الصناعات ويعملها إن لم يكن عائق من خارج، لا من جهة الإنسانية، فإذا التأم جميع هذا حصل من جملتها ذات واحدة هي ذات الإنسان». [معارج القدس، ص 23-24]، فقد تنوعت أنظار فلاسفة المسلمين في مفهوم الإنسان، طبيعة وجوده وفاعلية؛ فمنهم من ركز على الجانب الروحي، ومنهم من ركز على الجانب العقلي، ومنهم من مال إلى المنهج الخلفي، ومنهم من أثر التركيز على الجانب الاجتماعي. يقول الفارابي: «كل واحد من الناس مفطور على أنه محتاج في قوامه، وفي أن يبلغ أفضل كمالاته إلى أشياء كثيرة، لا يمكن أن يقوم بها كلها هو وحده، بل يحتاج إلى قوم يقوم له كل واحد منهم بشيء مما يحتاج إليه، وكل

واحد من كل واحد، بهذه الحال، فلذلك لا يمكن أن يكون الإنسان ينال الكمال الذي لأجله جعلت الفطرة الطبيعية باجتماعات جماعة كثيرة متعاونين، يقوم كل واحد لكل واحد ببعض ما يحتاج إليه في قوامه...» [آراء أهل المدينة الفاضلة، ص117]. فلإنسان علاقات متعددة، منها:

– **علاقته بربه:** هي علاقة عبودية وخضوع أساسها معرفة الله ومحبته، والسعي لتحقيق القرب منه، إسوة بجميع الكائنات، قال تعالى: ﴿إِذْ كُلُّ مِثْقَلٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِلَّهِ أَتَى الرَّحْمَنُ عَبْدًا﴾ [مريم 93]

– **علاقته بنفسه:** فالإنسان مطالب بفهم نفسه والتفكير فيها، والنهوض بها تهذيباً وتركياً، قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات 21]

– **علاقته بالكون:** وتتجلى في التسخير والتذليل والتمكين والاستدلال به على عظمة الخالق؛ فالكون مختبر يرى الإنسان فيه شواهد ما أخبر به الوحي، قال تعالى: ﴿إِذْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [190] الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيْلَمَآ وَفُعُودَآ وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ لَعَلَّآ بَلْ لَعَلَّ سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران 190-191]

– **علاقته بأخيه الإنسان:** وتتجلى في التفاعل والتواصل والتعايش، واحترام الآخر، انطلاقاً من لغة التفاهم، ومنطق الحوار الذي يسهم في تجديد الوعي الإنساني والاجتماعي والسنني والكوني.

– **علاقته بوجوده ومصيره:** وتكمن في الابتلاء والاختبار، والمسؤولية والجزاء استكمالاً للإنسانية الإنسان، الذي لم يخلق عبثاً ولن يترك سدى، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْتُمْ أَنْتُمْ خَلَقْتُمْ عِبَادَ اللَّهِ عَشْرَةَ أَيَّامٍ فَذُكِّرُوا﴾ [المؤمنون 115] وقال جل شأنه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْتُمْ أَنْتُمْ خَلَقْتُمْ عِبَادَ اللَّهِ عَشْرَةَ أَيَّامٍ فَذُكِّرُوا﴾ [القيامة 36]

التقويم

1. أعرف حقيقة النفس وإطلاقاتها وأنواعها ومراتبها؛

2. أبين حقيقة الإنسان، ومكونات وجوده، وعلاقاته.

الاستثمار

يقول الإمام الغزالي: «اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء، ميالةً إلى الشر، فرّارة من الخير، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها، ومنعها عن شهواتها، وفطامها عن لذاتها، فإن أهملتها جمحت وشردت، ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة، كانت نفسك هي النفس اللوامة التي أقسم الله بها، ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية. فلا تغفل ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها، ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولاً بوعظ نفسك». [إحياء علوم الدين 33/6]

أناقش هذا الكلام مبرزاً أهمية تزكية النفس، وأثر إهمالها وعدم محاسبتها ومجاهدتها.

الإعداد القبلي

أبحث - رفقة أصدقائي - عن مفهوم الحرية والمسؤولية وأنواعهما.